"الأرض" و"المنفى"
في شعر محمود درويش

د. علاَّل سنقوقة

أستاذ محاضر بقسم اللغة العربية وآدابها

جامعة الجزائر(2)

abstract

Find addresses the idea of alienation and exile in the poetry of Palestinian poet / Arab Mahmoud Darwish .

Through the first collections of poetry , he evokes the poet 's inner life which he lived in exile self as in fact , Weird continuous endless .

Weird associated with self- alienated home , and here are those of the work of Mahmoud Darwish rare in the Arab and global hair Value.

(اختار جدي العيش فوق تلّه تطلّ على أرضه، والى أن توفّي، ظلَّ يراقب المهاجرين (اليهود) من اليمين يعيشون في أرضه التي لم يكن قادراً على زيارتها) محمود درويش

يُعتبرُ محمود درويش ظاهرة متعددة الأوجه، تجلّى فيها تحوّلُ الشِّعر العربيّ برمَّته، ذلك لأنّه جمع تجاربَ متباينةً ومختلفةَ الاتجاه ، كما يرى ذلك صلاح فضل(1) ، فقد جمع –زمنيا- بين جيل الشُّعراء الرّوَّاد (شعراء الستينيات والسبعينيات) وشعراء عنفوان الحداثة الشِّعرية العربية ، كما أنّه احتوى تجاربَ فنيةً مختلفة، منها الكلاسيكية ، متمثلة في محاولاته الشعرية الأولى الخاضعة للنمط التقليدي والتي تراجع عنها الشاعر معتبرًا إيَّاها تجاربَ بسيطة، غير ناضجة فنيا. مرورا بأوج انطلاقته الشّعرية، زمن الشعر الثوري، متزامنًا مع المدّ الاشتراكي في العالم العربي مع ما كُرّسَ من قيم الالتزام وتوظيف الشعر من أجل الفائدة الوطنية والقومية، ثم مرحلته الأخيرة، التي نسمّيها مرحلة التأمل والذاتية (2).

ويظل محمود درويش في كلّ هذه الانتقالات واحدًا متعددا ،لم يتخلَّ عن قضيته والتزامه بقضايا الوطن ولكنّه حاول الخروج من القوالب الجاهزة التي أراد النقد العربي زجّه فيها(3) .

وقد آثرنا الوقوف على قضية الأرض والمنفى لكثرة ورودها في شعره ،سواء منه الشّعر الوطني السياسي أم الشّعر الأخير الذي عكسته تجاربه الشعرية قبل وفاته مع اختلاف في فهم الموضوع طبعا، من مرحلة إلى أخرى .كما تتبّعنا أسلوب التعبير عن التجربة عبر الوقوف على مجموعة من الإشارات في مستويات

التعبير: الافرادية والتركيبية والايقاعية وقاربنا درجة الانزياح والعدول، لما لها من أثرٍ على شعرية النص الشعري عند محمود درويش لأنّ الشعر انزياح في أصله الطبيعي(4)

ولد محمود درويش عام 1941 في قرية البروة(5) وهي قرية فلسطينية تقع في الجليل قرب ساحل عكا، حيث كانت أسرته تملك أرضًا هناك. خرجت الأسرة برفقة اللاجئين الفلسطينيين في العام 1948 إلى لبنان، ثم عادت متسللة عام 1949 بعد توقيع اتفاقيات الهدنة، لتجد القرية مهدمة وقد أقيم على أراضيها موشاف (قرية زراعية إسرائيلية فعاش مع عائلته في قرية "الجديدة".

بعد إنهائه تعليمه الثانوي في مدرسة يني الثانوية في كفرياسيف انتسب إلى الحزب الشيوعي الإسرائيلي وعمل في صحافة الحزب مثل "الإتحاد" و"الجديد" التي أصبح في ما بعد مشرفًا على تحريرها، واشترك في تحرير جريدة "الفجر" .

أُعتُقِل محمود درويش من قبل السلطات الإسرائيلية مرارًا بدءا من العام 1961 بتهم تتعلق بتصريحاته ونشاطه السياسي وذلك حتى عام 1972 حيث توجّه إلى الاتحاد السوفييتي للدراسة،وانتقل بعدها لاجئًا إلى القاهرة في ذات العام، حيث التحق بمنظمة التحرير الفلسطينية، ثم لبنان حيث عمل في مؤسسات النشر والدراسات التابعة لمنظمة التحرير الفلسطينية، علمًا إنه استقال من اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير احتجاجا على اتفاقية أوسلو. كما أسس مجلة "الكرمل" الثقافية.

شغل منصب رئيس رابطة الكتّاب والصحفيين الفلسطينيين. كانت إقامته في باريس قبل عودته إلى وطنه، حيث أنه دخل إلى فلسطين بتصريح لزيارة أمه. وفي فترة وجوده هناك قدم بعض أعضاء الكنيست الإسرائيلي العرب واليهود اقتراحًا بالسماح له بالبقاء وقد سمح له بذلك.

في الفترة الممتدة من سنة 1973 إلى سنة 1982 عاش في بيروت وعمل رئيسًا لتحرير مجلة "شؤون فلسطينية"، وأصبح مديرًا لمركز أبحاث منظمة التحرير الفلسطينية قبل أن يؤسس مجلة "الكرمل" سنة 1981. بحلول سنة 1977 بيع من دواوينه العربية أكثر من مليون نسخة، لكن الحرب الأهلية اللبنانية كانت مندلعة بين سنة 1975 وسنة 1991، فترك بيروت سنة 1982 بعد أن غزا الجيش الإسرائيلي بقيادة آريل شارون لبنان وحاصر العاصمة بيروت لشهرين وطرد منظمة التحرير الفلسطينية منها. أصبح درويش "منفيًا تائهًا"، منتقلًا من سوريا وقبرص والقاهرة وتونس إلى باريس وقد ساهم في إطلاقه واكتشافه الشاعر والفيلسوف اللبناني روبير غانم، عندما بدأ هذا الأخير ينشر قصائد لمحمود درويش على صفحات الملحق الثقافي لجريدة الأنوار والتي كان يترأس تحريرها .

ومحمود درويش كان يرتبط بعلاقات صداقة بالعديد من الشعراء منهم محمد الفيتوري من السودان ونزار قباني من سوريا وفالح الحجية ورعد بندر من العراق وغيرهم من أفذاذ الأدب في الشرق الأوسط.

أهم مؤلفاته الشعرية والنثرية:(6)

عاشق من فلسطين 1966 شعر/آخر الليل 1967 شعر/أحبك أو لا أحبك 1972 شعر/حبيبتي تنهض من نومها 1970 شعر/يوميات الحزن العادي 1973 نثر

محاولة رقم 7 1973 شعر/وداعاً أيتها الحرب، وداعاً أيها السلام 1974

تلك صورتها وهذا انتحار العاشق 1975 شعر/أعراس 1977/مديح الظل العالي 1983 شعر/حصار لمدائح البحر 1984 شعر هي أغنية 1986

ورد أقلّ 1986 شعر/في وصف حالتنا 1987 شعر/ذاكرة للنسيان 1987 نثر

أرى ما أريد 1990 شعر/عابرون في كلام عابر 1991 مقالات

أحد عشر كوكباً 1992 شعر/لماذا تركت الحصان وحيدا 1995 شعر

سرير الغريبة 1999 شعر/جدارية 1999 شعر/حالة حصار 2002 شعر

لا تعتذر عمّا فعلت 2004 شعر/كزهر اللوز أو أبعد 2005 شعر

في حضرة الغياب 2006 نثر/أثر الفراشة 2008 شعر/ العصافير تموت في الجليل1969

أوراق الزيتون1964

توفي في الولايات المتحدة الأمريكية يوم السبت 9 أوت 2008 بعد إجرائه لعملية القلب المفتوح في مركز تكساس الطبي في هيوستن، تكساس، التي دخل بعدها في غيبوبة أدت إلى وفاته وقد نال محمود درويش جوائز تقديرية كثيرة منها على وجه الخصوص:

جائزة لوتس عام 1969

جائزة البحر المتوسط عام 1980

درع الثورة الفلسطينية عام 1981

لوحة أوروبا للشعر عام 1981

جائزة ابن سينا في الإتحاد السوفيتي عام 1982

جائزة لينين في الإتحاد السوفييتي عام 1983

الصنف الأول من وسام الاستحقاق الثقافي تونس 1993

الوسام الثقافي للسابع من نوفمبر 2007 تونس

جائزة الأمير كلاوس الهولندية عام 2004

جائزة القاهرة للشعر العربي عام 2007

مرت حياة محمود درويش الشعرية بفترتين هامتين: الأولى هي مرحلة شعر المقاومة ، رفقة مجموعة من رواد الشعر الثوري وعلى رأسهم توفيق زياد وسميح القاسم ومثلوا مرحلة تاريخية سياسية هامة ، هي مرحلة المد الثوري في العالم العربي وتجلّت على المستوى التاريخ الفلسطيني في شعر ما بعد النكبة ،حيث شعر الفلسطينيون بالضيم والمهانة جرّاء الطرد العشوائي من الوطن الأم و يمكن إدراج الأعمال الشعرية الأولى لمحمود درويش ضمن هذا السياق ومنها بالأخص: أوراق الزيتون 1964 وعاشق من فلسطين 1966 وآخر الليل 1967 و العصافير تموت في الجليل 1969 ، هذه الأعمال تكشف العلاقة التزامنية بين الخطاب الشعري والخطاب السياسي، بشكل واضح جدا. كما تكشف علاقة الشاعر باللغة الشعرية بكل مكوّناتها الفنية ورموزها المكونة لها ،حيث امتازت بالبساطة والتجلّي الدلالي المحيل إلى القيمة الثورية متمثّلةً في النضال السياسي والدَّعوة إلى طردِ المحتل من الـأراضي الفلسطينية .

هناك عاملان أساسيان في صناعة هذا الاتّجاه لدى محمود درويش الأول: هو التّجربة النفسية والجسدية التي عاشها (وقد تعمدّنا التنويه بسيرته الذاتية لهذا الغرض) ()، وهو فتى في مسقط رأسه وما تعرّضت له أسرته من هجر وترحال بسبب تحويل بيتهما إلى مزرعة إسرائيلية وهو ما أدّى إلى بروز هذا الإحساس بالمنفى والتّرحال في نفسيته وقد تجلّى في شعره بشكل واضحٍ، لا تخطئه العين كما سنوضّحه لا حقًا .

أمَّا العامل الثاني: فهو عاملٌ خارجيٌّ متعلّق بوضعية العالم العربي كلِّه وما رافق هذه الحالة السياسية من انتشار الثقافة السياسية القومية. نعتقد أنّ محمود درويش كان أحد وسائط هذا الخطاب السياسي الثوري وهو ما جعل النقاد يعلّقون عليه آمالاً كبيرة ولا غرابة بعد ذلك أن يطلقوا عليه لقباً، سيظل محور جدل ورفض من قبل الشاعر هو "شاعر المقاومة " حيث دلّت أعماله الشعرية والنثرية في مرحلته الثانية على محاولة الخروج من صورة الشاعر الملتزم بالقضية الوطنية، ذات الابعاد القومية المحدودة إلى أفق الشعرية الواسعة ذات الابعاد الإنسانية الكبرى .مثّلت أعماله : أحد عشر كوكبا1992 وردٌ أقلَّ 1986 وأرى ما أريد 1990 و لماذا تركت الحصان وحيدا 1995 ، هذا المنحى في تجربته الشعرية (8).

حيث برز الذاتي بقوة لدى الشاعر، بل إنّ ظاهرة جديدة بدأت تميّز مسيرته وهي كتابة النثر الفني الذي هو أقرب ما يكون إلى قصيدة النثر التي ظلَّ الشاعر يرفضها كجنس بديل لقصيدة الايقاع أو القصيدة الكلاسيكية المعروفة ، وبالرغم من أن الشاعر لم يصنف هذه الأعمال في جنس محدّد من الشعر إلا أنّ تسمية " نصوص" التي أطلقها عليها توحي بأنّه كان يرفض التصنيف وأنّه كان يودّ الخروج من التصنيفات الجاهزة التي ظلّ يتبادلها النقَّادُ فيما بينهم بشأنِ هذه النُّصوص .

في هاتين المرحلتين، تميّز الخطاب الشعري لدى محمود درويش بالاختلاف والمغايرة سواء كان ذلك في الأبعاد الموضوعاتية أم في السمات الأسلوبية التي طبعت قصائده .

لكنّ البارز في شعر محمود درويش ،بعيدا عن هذا التقسيم المدرسي لمراحل الظاهرة الشعرية لديه، هو سؤال الأرض والهوية والمنفى والاغتراب والتمزّق وهو سؤال مركزي في شعره في المرحلتين معًا. بالرغم من التنوّعات الأسلوبية التي نجدها من مرحلةٍ إلى أخرى

ففي أعماله الأولى، نلاحظ أيقونةَ المكان حاضرةً، من خلال عناوين الدواوين الشعرية والقصائد فقي **أوراق الزيتون(9)** إحالة مباشرة إلى الأرض والهوية وكذلك ديوانه **عاشق من فلسطين(10)** ثم **العصافير تموت في الجليل** (11)فهناك طريقة واضحة للتعبير عن الحنين والألم ،جرّاء ما يثيره الاحساسُ بالمكان من تمزّق في الأنا الفردية للشاعر التي سرعان ما تتحول إلى صوت الأنا الجماعية وكذلك في **آخر الليل** (12) الذي يشير إلى علاقة زمنية بين الشاعر والمكان ،ولكن المعنى الحقيقي هو التعبير عن التمزق لأن الليل هو استعارة لمآل المكان لا الزمان .

وإذا ما تأملنا أعماله الأخرى المتأخّرة نجد أنّ تيمة الأرض / المكان تيمة مميّزة في عناوين الشاعر : **سرير الغريبة** (1999) (12)**كزهر اللوز أو أبعد** 2005(13) .أحد عشر كوكبا (1992) (14) وبالرّغم من التنوع التيمي (الموضوعاتي) إلا أنّ هاجس المكان / الأرض، يظلُّ أساسيًا ومركزيا في كل ما كتب محمود درويش .

وإذا ما نظرنا في عناوين القصائد التي ضمّتها أعماله، نلاحظ تكرار الظاهرة نفسها، ففي ديوانه **أوراق الزيتون** نجد العناوين الآتية : وعاد..في كفن / الموت في الغابة / ثلاث صور/ الموعد الأول/ رسالة من المنفى / حنين إلى الضوء/ بطاقة هوية / (15)

بينما نجد في ديوانه **عاشق من فلسطين** العناوين الآتية : بيروت ،قطار الساعة الواخدة ،حالة واحدة لبحار كثيرة ...وسنتوقف في هذه القراءة على قصيدتن هامتين في رأينا هما قصيدة رسالة من المنفى من ديوانه الأول أوراق الزيتون وقصيدة عاشق من فلسطين من ديوانه الثاني لما تحملانه من قوة التعبير عن مرحلة محمود درويش الأولى مع الاستئناس بمجموعة من العناوين الشّعرية من أعماله الأخرى .

تتكون قصيدة **رسالة من المنفى** من خمسة مقاطع ولذلك فهي من بين القصائد الطويلة في الديوان وفيها تجسيد لإحساس الشاعر بالمنفى بأسلوب مباشر يكشف عن خصائص مرحلة شعرية لدى محمود درويش وهي -كما أسلفنا- النظر إلى الشّعر بوصفه أداة مقاومة .

يقوم النص الشّعري في هناعلى السّؤال والشّكوى من الحال، بأسلوب هو مزيج من السخرية والاستنكار لما تبثه وسائل الإعلام عن " المشرّدين " الفلسطينيين . نلاحظ أنّ الشّاعر صاغ قصيدته في شكل رسالة من ابن في المنفى إلى والدته ، يطلعها فيها عن حاله في الغربة والمنفى . ففي المقطع الأول والثاني يوجّه لها التحية ويخبرها أنه يعمل في مطعم وأنّه بخير . بيد أنه يتساءل في المقطع الثاني، عن صحة الأخبار التي يبثّها المذياع بخصوص حال المهجَّرين المبعدين عن الأرض والوطن .

وفي المقطع الثالث يشير إلى أنّه قد كبر وأصبح شابا في العشرين،انخرط في كل عادات الشباب من حب اللهو والبنات ويواصل في المقطع الرابع التساؤل عن حقيقة أخبار المذياع لينتهي في المقطع الخامس والأخير للتعبير عن تذمره من قبضة الموت التي تطارده والعراء الذي يعيش فيه المنفيون عن الأهل والوطن .

توحي" الرسالة " بالبعاد والاغتراب عن الأرض/ الأصل والفقد والحزن على الوطن المحاصر تتأسّس اللغة على بنية الوضوح والتداول ، لا تغرق كثيرا في الغموض ولا وتجنح إلى التكثيف الاستعاري نلاحظ ذلك من خلال الاستهلال التالي:(16)

تحية ...وقبلة

وليس لي ما أقول بعدْ

من أين أبتدي ؟..وأين أنتهي ؟

ودورة الزمان دون حدّ

وكلُّ ما في غربتي

زوّادة ،فيها رغيف يابسٌ،ووجدْ

ودفتر يحمل عني بعض ما حملت

بصقت في صفحاته ما ضاق بي من حقدْ

يؤسس السؤال المركزي من أين أبتدي؟ وأين أنتهي؟ محور الخطاب الشعري ،كأنّ الشاعر يسأل ويجيب عن ذاته ،بسبب غياب من يجيب أو لصعوبة التصريح بالجواب أو لانعدام الجواب عن أسئلته وما ذكره الشاعر لاحقًا يعدّ محاولةً منه للإجابة عن السؤال .

ويذكر هنا بعض العلامات : دورة الزمان-الغربة –رغيف يابس-الوجد-الحقد وهي دوال كاشفة عن معنى ضمني .تأتي اللازمة بعد ذلك :من أين أبتدي؟ لتفرض منطقا آخر في الكلام: (17)

وكلّ ما قيل وما يقال بعد غدِ

لا ينتهي بضمَّة أو... لمسة من يدِ

لا يرجع الغريب للديار

لا ينزل الأمطار

لا ينبت الريش على

جناح طير ضائع ..منهَّدِ

من أين أبتدي؟

وما الغريب إلاَّ الإحساس الذي يختلج في ذات الشّاعر وما الدار إلاَّ الأرض . تتحوَّلُ المسافات التي يمكن تصورها في الوطن إلى دارٍ، ذات نطاق محدود ومكثف يدلُّ على البُعد القيمي الإنساني للأرض ، باعتبار المسكن من المناطق الأليفة ذات الطابع الحميمي(18) بالنسبة للإنسان.

فيما تبقى صورة الأب أثيرة وملهمة للشاعر ،فهو يسأل عن حاله متلهفا راغبا في سعادته وفرحه لا حزنه يقول :(19)

سمعت في المذياع

قال الجميع: كلنا بخير

لا أحد حزين ،

فكيف حال والدي

ألم يزل كعهده ،يحبّ ذكر الله

والأبناء ...والتراب ...والزيتون؟

وتكاد كلُّ المفردات الواردة في تساؤل الشّاعر تشكّل رموزًا واضحةَ الدَّلالة ،فالأب ليس الجسد بل هو التاريخ الممتدّ فيه ، والأبناء هي استمرارية الوطن، متجليًا في أركيولوجيا الجسد الفلسطيني، فيما يظلُّ "التراب" من الرموز ،قوية الدَّلالة في شعر محمود درويش في هذه المرحلة الحاسمة .

أما الزيتون فهو من المفردات كثيرة التردد في قاموس الشاعر عبر تجربته الطويلة ، فقد تحوَّل شعره في هذه المرحلة إلى دليلٍ ومؤشِّر على الثّورة والأرض والهوية والانتماء والغربة والاغتراب ويواصل الشَّاعر موَّاله الحزين قائلاً:(20)

هل يذكر المساء

مهاجرا أتى هنا...ولم يعد إلى الوطن؟

هل يذكر المساء

مهاجرا مات بلا كفن؟

ياغابة الصفصاف هل ستذكرين

أنّ الذي رموه تحت ظلك الحزين

-كأيّ شيء ميّت-إنسان؟

يلاحظ هنا النَّبرة الاحتجاجية ضد الموت والقتل الهمجي الذي لا يتعرّض له الجسد بل الإنسان وهي المفارقة التي تخلقها الحروب ، كما يتجلّى البعدُ الإيديولوجي بشكلٍ واضح لا تخطئه العين . ومهما يكن فإنّ هذه النبرة الاحتجاجية تظل قائمة في السطور الموالية من النص بل تزداد قوّة :(21)

هل تذكرين أنّني إنسان

وتحفظين جثتي من سطوة الغربان

أمّاه يا أماه

لمن كتبت هذه الأوراق

أيّ بريد ذاهب يحملها ؟

سُدّت طريق البر والبحار والآفاق....

وأنت ياأمّاه

ووالدي وإخوتي، والأهل، والرفاق...

لعلكم أحياء

لعلّكم أموات

ويستمرّ هذا التصعيد الأسلوبي في شكلٍ عمودي متصاعد ، ولعلَّها طبيعة التّجربة الشعرية المتوترة التي يعبّر عنها الشاعر ، وتصل القصيدة إلى ذروة الانفجار في الأخير ،وكأني بالشاعر يعلي من صوته هذه المرّة قائلا :(22)

لعلَّكم مثلي

ما قيمة الإنسان

بلا وطنٍ

بلا علمٍ

ودونما عنوانٍ

يوظّف الشاعر لغة معيارية ، يختفي فيها العدول أو الانحراف الذي تقتضيه اللغة الشعرية لأنّ الشّعر قوامه الخروج عن مألوف اللغة ، ليعبّر عن الحالة السياسية والمأزق الذي يعيش فيه الإنسان عامة إذ لا يربط الشاعر موضوعه بالحالة الفلسطينية بقدر ما يربطه بواقعه الإنساني وهو ما يدلُّ على البعد الإنساني في شعره.

نلاحظ أنّ النص يقوم على بنية تطورية في النبرة الصوتية والأسلوبية ، ينوع في نهايات الأسطر: الدال-الراء-التاء-النون وبلازمة شعرية تتردد في كلّ المقاطع ، فضلاً عن المحافظة على الوزن الشّعري وتنويعه وهو ما يكشف عن وعي الشّاعر بالمسألة الإيقاعية لأنها ذات تأثير كبير على المتلقي ، لكنّ العدول يتشكل في تقويض بنية أسلوب الرسالة القائم على الإخبار والتقرير . حيث عمد الشاعر إلى بناء أسلوب مغاير هو أسلوب الاستفهام والتعجّب والأمر والنّهي والنداء والترميز لبعض الحالات الشعرية بمعجم لغوي "شعبي" متداول ولكنّه يحيل إلى دلالات شعرية عميقة على نحو : رغيف يابس، المذياع، أنا بخير،أمّاه، ثوبي العتيق، صرت في العشرين، أغسل الصحون،...إلخ إن قوة الكلمات تأتي من السياق الذي وظّفت فيه في النص الشعري .

هناك مظهر آخر للعدول وهو في مضمون اللغة ،حيث إنّ الشاعر لا يريد التساؤل عن حالة الأم والوالد والإخوة والأحباب والرفاق ولا الإخبار عن حالته ، بل إنّ شكل الرّسالة ما هو إلا إيهام بهذا، قصد وضع المتلقّي في حالٍ من الدَّهشة والغرابة وهو أمرٌ متحقّق في هذا النص.

تتصاعد درجةُ التعبير عن الألم والأرض والاعتراف في ديوانه :(عاشق من فلسطين) إذ تشكل النصوص الواردة فيه جدارية ملحمية للوطن ولكنّ نصَّين من أكثر النُّصوص شهرةً لدى محمود درويش في هذه الفترة هما : قصيدة"**بطاقة هوية** " و"**عاشق من فلسطين**" يمثّلان حقّ تمثيل هذا الجنوح نحو الملحمية الشعرية

الثورية ويظهر فيها تبرّم الشاعر من أوضاع بلده وغربة أهلها عليها ،واقفاً على حالات القمع والجوع والضياع يقول في نصه الأول :(22)

سجّل

أنا عربي

وأعمل مع رفاق الكدح في المحجر

وأطفالي ثمانية

أسلُّ لهم رغيفَ الخبز

والأثواب والدفتر

من الصخر

ولا أتوسّل الصدقات من بابك

ولا أصغر

أمام بلاط أعتابك

فهل تغضبْ؟

ثم يصف قريته قائلا في مقطع آخر:(23)

أنا من قرية عزلاء منسية

شوارعها بلا أسماء

وكل رجالها في الحقل و المحجر

يظهر الفلسطيني في علاقة غير توافقية مع أرضه، يعيش الكدح المستمرّ والغربة عن الفضاء / الأرض التي ظهر فيها قبل : "**ميلاد الزمان وتفتّح الحقب وقبل السرو والزيتون**" (24)كما يقول الشاعر نفسه وهي بؤرة التوتّر التي نشعر بها في هذه اللازمة الشعرية التي يكررها الشاعر : (سجّل –أنا عربيّ) وقد صيغت القصيدة في شكلِ اعترافٍ من ذات عربية متألّمة من حالها إلى مخاطَب افتراضي، قد يكون العدوّ الإسرائيلي أو أيّ فرد آخر يشعر بفظاعة احتلال الأرض ومحاولة مسخ شخصية أصحابها وتكرار اللازمة لها وظيفة دلالية لا تخفى على المتلقي وهي التأكيد على الهوية العربية بكل مكوّناتها الجينية والأركيولوجية كما يصورها الشاعر و" يلاحظ أنّ ما يجول في نفس الشاعر من أحاسيس سواء أكانت في منطقة الشعور أو اللا شعور هي التي تحدد نوع هذه الكلمة ومكانتها وزمانها نتيجة وقعها في نفسه وأثرها عليه"(25)

فيما تكشف قصيدته عاشق من فلسطين عن علاقة عشق وحلول بين الشاعر الأرض(فلسطين) ، يستعير المرأة الفلسطينية للتعبير عن الفجيعة والمأساة ،راسما الملامح الأنثوية للدلالة على الأرض والعذاب ،كما يعود إلى التاريخ القديم(الرومان) لاستعادة الوجه الفظيع للغرب، تتدرّج القصيدة شيئا

فشيئا كأنّها صور لحلم متقطّع ، مشكّلاً لوحة يتنوع فيها الأسلوب من مقام إلى آخر ،ويستهل نصها بقوله:(26)

عيونك شوكةٌ في القلب

توجعني...وأعبدها

وأحميها من الريح

ثم يردف في موقع آخر قائلا:

أنت أنت الصوت في شفتي

وأنت الماء،أنت النار

وتتعدّد الصور في شكل سردي حكائي ممزوج بأزمنة مختلفة ، الحاضر -الماضي -المستقبل ، كأنّ الأرض تحاور أقدارها وأزمنتها المختلفة ، فالشّاعر لا يتوقّف عن وصف الحال فقط بل يتخذ من الصور تلك وسيلةً للتعبير عن الأحلام الوردية والآمال في أن يرى بلده قد تغيّرت فجيعته ،يرى وجهه في مرآة وطنه المتباعد عنه ، أو المسافر فيتألّم لذلك قائلا :(27)

ولكنّي أنا المنفيّ خلف السور والباب

خذني تحت عينيك

خذيني،أينما كنت

خذيني، كيفما كنت

من الملاحظات التي تبقى في نظر قارئ محمود درويش قدرته على شدّه إليه بالأسلوب السردي الذي يتخذه وسيلة للتعبير عن رؤياه ،مستعملا رموزا كثيرة منها المرأة العربية والفلسطينية راسما لها ملامح جميلة متعددة ، كما ازدادت النبرة الملحمية في شعره ، خاصة في ديوانه هذا (عاشق من فلسطين) ،وتبقى أدواته الأسلوبية متشابهةً إلى حد كبير فهو ميَّال كثيرا إلى التعبير عن الفكرة ، بلغة لا تتردّى في الغموض ،أي أنّها لغة شعرية واضحة الدوال والتراكيب ولا يتعب القارئ كثيرا في القبض على الدلالات التي تتضمنها ولعلّ ذلك مرتبط بطبيعة التجربة والفترة الزمنية التي كان يصدر عنها محمود درويش : استعمال التكرار والرمز والإيقاع والطبيعة المستمدّ من البيئة الفلسطينية والحكي المستمر الذي يحول الصورة الشعرية ويطورها من حال إلى حال هي من بين آليات اشتغال الخطاب الشّعري عند محمود درويش هذا بالرغم مما نجده في شعره من ميل إلى التقرير أحيانا ولعلها أزمة لغة الشعر العربي المعاصر في بدايات تشكّله (28).

هوامش وإحالات:

*مقطع مأخوذ من حوار له موجود على موقعه في الأنترنت

1--صلاح فضل :أساليب الشعرية المعاصرة ،دار الآداب،بيروت ،لبنان ،ط1، 1995، ص8

2-أمجد ناصر : جدل الوطني والذاتي والجمالي عند محمود درويش، جريدة القدس العربي عدد خاص بأربعينية الشاعر،20-21سبتمبر2008

3-فخري صالح : من شاعر الوطن إلى شاعر الإنسانية ، ج/ القدس (عدد خاص 20-21-2008)

4--جورج مولينيه: الأسلوبية، تر: بسام بركة ،المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع،بيروت ،لبنان، ط2، 2006، ص14

-ينظر كذلك : شكري عياد : مدخل إلى علم الأسلوب، مشروع الطباعة ، القاهرة ،مصر 2 ،1992،ص22

5-استندنا في سيرة الشاعر والتعريف به وبأعماله مصادر مختلفة ومنها موقعه على الأنترنت وكذلك تقديمات الناشرين له في دواوينه وكتاب (محمود درويش شاعر الأرض المحتلة) لرجاء النقاش.

6-ينظر ج/ القدس العربي عدد خاص مذكور

7-رجاء النقاش: محمود درويش شاعر الأرض المحتلة ،دارالهلال،مصر،ط2، دت ،ص47

8-وائل غالي :شاعر الأرض والعالم معاً،ج/ القدس العربي،عدد خاص مذكور

9-محمود درويش: محمود درويش : الأعمال الشعرية الكاملة ،المؤسسة العربية للدراسات والنشر،بيروت ،لبنان ،ط1973،1، ص45

10-محمود درويش: المصدر نفسه ،،ص52

11-محمود درويش:المصدر نفسه،ص56

12-محمود درويش: ديوان سرير الغريبة،دار نجيب الريس،بيروت ،لبنان،ط1، 1999

13-محمود درويش: كزهر اللوز أو أكثر،دار نجيب الريس،بيروت ، لبنان،ط1، 2005

14-محمود درويش: أحد عشر كوكبا ،دار نجيب الريس، بيروت ،لبنان،ط1، 1992

15-محمود درويش:أوراق الزيتون،ص20

16-المصدر نفسه،ص22

17-المصدر نفسه،ص23

18- غاستون باشلار : جماليات المكان ،ت/ غالب هلسا ،المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت لبنان ،ط3، 1987 ص111

19-أوراق الزيتون،ص33

20-المصدر نفسه،ص36

21-المصدر نفسه،ص42

22-محمود درويش: عاشق من فلسطين،ص33

23-المصدر نفسه،ص25

24-المصدر نفسه،ص63

25- عز الدين منصور: دراسات نقدية ونماذج حول بعض قضايا الشعر المعاصر،مؤسسة المعارف،بيروت ،لبنان،ط1، 1985، ص64

26-عاشق من فلسطين،ص26

27-المصدر نفسه،ص38

28-ينظر عبد السلام المسدي:في جدل الحداثة الشعرية نموذج المفاصل،ضمن كتاب" الشعر ومتغيرات المرحلة" ،كتاب جماعي(عبد السلام المسدي،سلمان الواسطي، عبد الواحد لؤلؤة،فاضل ثامر)، وزارة الثقافة والإعلام ،دار الشؤون الثقافة العامة ـبغداد العراق،د.ط،د.ت،ص13